ترجمة

سيدي البشير بن سيدي محمد الزيتوني رضي الله عنه.

بقلم سيدي محمد الحافظ التجاني رضي الله عنه.

ولد رضي الله عنه بتونس حوالي سنة 1225 هجرية، وهو شريف حسيني أبًا وأمًا، وكان والده من رجال الحكومة في فاس ثم انتقل إلى تونس وأقام بها، وكان من خواص أصحاب شيخنا رضي الله عنه، وكان مع ولايته بحرًا في العلم الظاهر، وجاءه بعض علماء تونس يمتحنونه في آية: (إنا أنزلناه في ليلة القدر)، فمكث في لفظ منها أيامًا عدة وهو يشرحه ويبدي فيه من علوم غيب الغيب ما بهرهم، وقربه إليه حاكم تونس وولاه رتبة سامية.

وأما والدته فقد كانت من الأكابر، ولما حضرتها الوفاة دمعت عيناها فأخذ يصبرها، فقالت: يا بني ما أنا جازعة ولكن لا أرى لك أولادًا يعيشون، ثم قالت بعد: ولكن رأيت ما لا يحصى من تلاميذك.

ولما بلغ سيدي البشير الخامسة عشرة من عمره أدخله والده الخلوة ثم أخرجه منها فارًا من الخلق، فحزنت والدته بذلك، فقال له والده: اصحب الخلق لينتفعوا بك، وزوجه ابنة عمه، ثم قال: رح إلى سيدي إبراهيم الرياحي، وكان إذ ذاك شيخ الإسلام بالديار التونسية، وقال له: استأذن والدتك واذهب إليه يوم الأربعاء، فاستأذنها وحرصًا على الخير ذهب يوم الإثنين فوجده في خلوته، فقال له سيدي إبراهيم: أوالدك بعثك إلينا بعد ما صفاك؟ وهل يترك الناس البحر ويأتون للخليج؟ فقال: إن

سيدي هو الذي أرسلني إليك، ثم قال له: خذ بيدي إلى الله، فقال شيخ الإسلام: عد يوم الأربعاء، فعاد في ذلك اليوم، فسأله: هل استأذنت والدتك؟ فقال نعم، فأعطاه الطريق وتولى تربيته، ثم مكث ما شاء الله، وقدمه لإعطائها.

ثم تاقت نفسه للحج والزيارة، فاستأذن والده، فأذن له وأعطاه سبعمائة ريالًا، وقال له عنها: لا أسامحك حتى تنفقها في طلب العلم، وأمره بمطالعة مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وأمره بطلاق ابنة عمه، فقال له: سيدي إني مزمع الرجوع، فأمسك بناصيته وقال: يا بني اللقا يوم اللقا، هذه ناصية كتب عليها سفر طويل وستتزوج نساء كثيرات، ففعل، وكتب للشيخ عليش يوصيه به، فسافر متوكلًا على الله مارًّا بطرابلس ومصر ولقي بها الشيخ عليش وصحبه مدة، ثم استأذنه في السفر للحج فأذن له وكتب لشيخ المالكية بمكة يوصيه به، فنزل عنده.

وأقام بالحجاز أربع سنوات، وأنفق في حضور العلم المال الذي أعطاه والده، واجتمع في المدينة المنورة بسيدي عمر بن سعيد الفوتي رضي الله عنه، وتوثقت عرى الصداقة بينهما، وقال له سيدي عمر: إني سأكون ملكًا بالسودان وتزورني، فقال له: وبأي شيء؟ لا مال ولا رجال، فقال: إن شاء الله سآخذ الملك بالسر وستزورني وأنا ملك، وثبت أن سيدي عمر كان بالحجاز سنة 1245 هـ وتلاقيا في سنة 1246 هـ أو سنة 1247 هـ.

وسافر إلى اليمن وأعطى الطريق، وبنى بها زاوية، وخلف بها خليفة وأمره أن يخلف أخاه عند الكبر. ثم عاد إلى مصر وصحب الشيخ عليش تسع سنوات يحضر عليه العلم، ثم سافر سائحًا يعبد الله ويتجر إلى أن وصل بلاد سيدي عمر بن سيدي الفوتي بالسودان الغربي، فوجده قد تولى الملك وأقام معه مدة، ثم عاد إلى السودان الشرقي جنوب مصر،

وأخذ يتاجر في ريش النعام وغيره حتى كان لديه إحدى عشرة ألف جنيه، وكان ديدنه إذ ذاك أن يسأل الله عز وجل أن يحفظه من فتن الدنيا.

وعزم على الرجوع إلى مصر فضل الدليل الطريق، ومكثوا أربعين يومًا، وكانوا كلما عطشوا ذبحوا جملًا وشربوا ما في جوفه من الماء، وتركوه بما عليه من أموال، فهلكت الأموال وماتت العبيد ولم يبق معه إلا عبد واحد وهجينه الذي يركبه، قال الشيخ: فنمت فرأيت رجلًا أبيض الوجه نظيف الشيبة، فقال لي: يا بشير لا تحزن قم والحق الدليل وبشره وقل له: إن الدرب أمامنا في مجرى الغزال، فاهتدوا إلى الطريق، وتاجر حتى اجتمع عنده ألف جنيه، وعاد إلى مصر، فمرض ببطنه فصرفها في مرضه.

ثم عاد إلى السودان وتزوج بأم ولده السيد محمد رحمه الله تعالى الذي ولد في سنة 1283 هـ، وكان أبوها له ست عشرة ساقية وكان رجلًا كريمًا، وقال رضي الله عنه: عندما خلفت محمدًا ولدي كنت أملك أربعة آلاف جنيه واثني عشر عبدًا وثمان عشرة جارية.

وقد وقع له في السودان عجائب، وأسلم على يده كثير من الكفار ممن لم تبلغهم الدعوة، وبنى عندهم مسجدًا، وأعطى الطريقة التجانية في الخرطوم، وقدم بها أربعة، وفشت الطريقة فغار بعض أهل الطريق منه وأرادوا إيذاءه، فوقاه الله شرهم، وظهرت كراماته.

ثم عزم على التجرد والرجوع لمصر فقيرًا، فلما وصلها لقي أحد التجانيين يجيد صناعة الغرزة، فتعلمها منه لكونها ليس فيها شبهة، وكان ذلك بأمر باطني، ثم رزقه الله شيئًا من المال اشترى به بلغًا، وأقام في أبي كبير شرقية يتجر بها، وكلما فرغت منه البضاعة يسافر إلى القاهرة فيمر بتلبانة ويبيت بها، وعرفه الشيخ حسن خضر أبو حمام وكان إذ

ذاك شيخ البلد، واستمرت الصحبة إلى ولده الشيخ خليل العمدة وأهله جميعًا، وطلب أن يقيم ببلده، وأقام ببلبيس مدة وكان يتجر فيها وفي شلشلمون ومشتول وبردين وتلك الجهات، ثم انتقل إلى تلبانة قرب سنة 1294 هـ وتزوج بها، ثم أراد الرجوع إلى تونس وكان قد بلغه خبر وفاة والده فطلب منه القنصل الفرنسي أن يأخذ حماية، فقال: أنا لا آخذ إلا حماية ربي، وكان أهله أرسلوا إليه أربعمائة ريال، فقال القنصل: هل أردها؟ فقال: نعم والله لا أستظل تحت ظل كافر، فردها وكتب لتونس أنه أسقط حقه لباقي الورثة.

ثم سافر للحج وأقام بمكة ثلاث سنوات، وكان يزور المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان يريد ألا يبارح جوار البيت الشريف، ولكنه أمر بالرجوع إلى مصر لتربية الخلق، فرجع إلى تلبانة، وانتشرت الطريق على يده، واشتهر أمره وظهرت كراماته، وكان عارفًا ربانيًّا حكيمًا قدسيًّا، له النفس العالي والفضل السامي، متواضعًا عزيزًا مستورًا شهيرًا، قال عنه العلامة الشيخ أبو عسكر: كأنما ربي في حجر نبي.

وكراماته منتشرة يتحدث بها الكبير والصغير:

فمنها ما حدثنا به الرجل الثقة الصالح الشيخ حسن قرقر من بردين شرقية، أنه اجتمع بالخضر وأسر إليه أربع كلمات وأمره بكتمانها ولم يخبر أحدًا بذلك قط، فبعد ثلاثين سنة لقيه سيدي البشير فسلم عليه، وقال له: هنيئًا لك، إنك قابلت الخضر وساررك بأربع.

ومنها ما حدثني به عمدة تلبانة الشيخ عبد الحميد خليل حمام أن والده -وكان صديق سيدي البشير- استشاره في أن ينقل ولده أحمد أفندي خليل، وكان كاتبًا بمرتب مائة وخمسين قرشًا بدائرة الأمير إبراهيم حلمي إلى الدائرة السنية بأضعاف ذلك المرتب، فقال له: لا تفعل إنه

سيكون باشكاتب الدائرة إن شاء الله تعالى أما الدائرة السنية فليس هناك دائرة سنية وها أنذا قد ختمت لك، ثم تحقق ذلك كله بعد وفاة سيدي البشير، فصار باشكاتب الدائرة وألغيب الدائرة السنية، وهو الآن في هذه الوظيفة.

ومنها أنه كان يخبر من رأى رؤيا من أصحابه بما رأى، ومن ذلك ما حدثني به تلميذه وحبيبه الشيخ محمد سلامه، أن رجلًا رأى النبي صلى الله عليه وسلم شرب ثم أعطاه فضلته فأعطاها لغيره، ففي الصباح قال له: هو كان قال لك أعط غيرك؟

وطلب أحد أصحابه من أخيه إعانته، فقال له سيدي البشير: وهل صرفت الجنيهات الثمانية التي خبأتها في الحائط؟، ولم يكن أحد يعرف ذلك، وكثيرًا ما كان يتكلم على الخواطر منها أنه خطر على قلب تلميذ له أن يتزوج زوجته بعد وفاته، فنظر إليه في الحال وحدثه بذلك.

ومن غرائب كراماته أنه كان جالسًا بين أصحابه فصاح وقال: يا لطيف يا لطيف يا لطيف وصار يشير، فسأله أصحابه عن ذلك، فقال: إن أخاكم أبو عثمان عمدة العدلية خرجت عليه اللصوص وضربته ولكن الله سلم، وكان في بلدة أخرى، ثم ذهبوا فألفوا ذلك الرجل وقد ضرب ضربًا مبرحًا، فقال له سيدي البشير: احمد الله قد حملت عنك الضرب، وكشف ذراعيه فإذا الضرب ظاهر عليهما، ومن يعرف سعة دائرة الروح لا يتوقف في ذلك، ولا عبرة بجهل الأغبياء.

ومن كرامات تلميذه عبد الحميد سلامه، أنه اشترى خروفًا من السوق وكان مريضًا فأتعبه، فسأل الله أن يريحه منه، فما استتم دعاءه حتى جاءت بنت الحاج على المقدم وكانت راكبة فحملته عنه، فقال: يا رب أنا أيضًا تعب، فما استتم دعاءه حتى رأى نفسه في البلد، وجلس

مدة مع أخيه الفقيه سيدنا الشيخ محمد سلامه، حتى جاءت تلك السيدة فقالت: من أين جئت يا شيخ عبد الحميد؟ فقال: من هنا.

وكان إذا قرأ ورده في الظلام يضاء المكان الذي هو فيه ببركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وله كرامات أخرى، حدثني بذلك أخوه سيدي الشيخ محمد سلامه.

وقد أعطى سيدي البشير الإجازة لسيدي الشيخ محمد مدكور، من طصفا دقهلية ـ مطلقة يعطي كل شؤون الطريق ولا يقدم لإعطائها أحدًا، والسيد محمد البغال الكبير، والشيخ عبد الجليل فخر من بلبيس، والشيخ محمد العتيق من العدلية.

وكراماته مستفيضة، وقد أفردت ترجمته بالتأليف، وتوفي بتلبانة شرقية يوم الأحد 28 جمادى الأولى سنة 1323 هجرية، رضي الله تعالى عنه، آمين.